القلب المكانيّ بين القدماء والمُحدَثين: دراسة وتحليل

The spatial heart between the ancients and moderns, study and analysis

د. تمام حمد المنيزل*

جامعة الجوف، كلّيّة العلوم والآداب بالقريات، قسم اللُّغة العربيَّة، المملكة العربية السعودية،

thalmnaizl@ju.edu.sa

تاريخ الاستلام:2021/06/03 تاريخ القبول: 2021/06/10 تاريخ النشر: 2021/07/31

الملخص:

تُعدّ ظاهرة القلب المكانيّ من الظّواهر اللّغويّة، التي نالت حظاً وافراً تنظيرًا وممارسةً في المصنّفات التّراثيّة والحديثة؛ إذ ارتبطت بالصّيغ المفردة للّغة العربيّة، ورصد ما يطرأ عليها من تغييرات في حروفها زيادةً ونقصانًا.

ولا جرم أنّ العلاقة بين القلب المكانيّ، والميزان الصرفيّ علاقة مُحكَمة، ورابطة مُنتظمة؛ إذ إنّ التّغييرات التي تطرأ على الكلمات: تُفضي إلى تحديد الصّيغ الصّرفيّة المتولّدة عن هذه العمليّة.

ولم تكن هذه الظّاهرة اللّغويّة محلّ إجماع بين علماء العربيّة؛ بل ولّدت خلافًا حادًا بين مُختلف المدارس النّحويّة؛ فقد ضيّق البصريّون من مجال الاستشهاد بها؛ في حين وسّع الكوفيّون فضاء الاستشهاد والممارسة التّطبيقيّة؛ بل إنّ من العلماء من أنكر وجودها كابن درستويه (ت337هـ).

وقد امتدّ هذا الخلاف إلى المحدثين؛ نظرا لاختلاف المدارس اللّغويّة، وتطوّر الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة.

ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نقدّم مُقاربة علميّة، تبحث في حقيقة هذا الخلاف المعرفيّ، ومنطلقاته العلميّة والمنهجيّة؛ للإجابة عن الإشكاليّات الآتية:

* **المؤلف المرسل**

هل ظاهرة القلب المكانيّ ظاهرة مُقرّرة في الدّرس اللّغويّ ؟ وما ضوابطها، وقواعدها وقيودها؟ وهل التّغييرات التي تطرأ على الكلمات من شأنها أن تحدث تغييرا في المعنى الأصلي للمُفردة؟ وما علاقة هذه الظّاهرة بالاستعمال اليوميّ للّغة العربيّة ؟ وما أثر القلب المكانيّ في نمو اللّغة وتوالدها؟.

الكلمات المفتاحية: القلب المكاني؛ اللهجات .

Abstract:

Metathesis is one of the linguistic phenomena that has received, theoretically and practically, a great deal of attention in both old and modern references. It was associated with the singular forms of Arabic language, and identifying any changes in their letters, either deletion or omission.

There is no doubt that both Metathesis and Morphology are closely and systematically connected, since any change in a word's structure result in new morphological formulas.

This linguistic phenomenon was not a subject of consensus among Arab scholars; rather, it caused a huge between different grammatical schools. Basrians limited its citation, Coffins expanded its citation and practical applications, rather, and some scholars denied its existence as Ibn Darstawayh (337 A.H).

Due to the verity in linguistic schools, and the development of phonological and morphological studies, disagreement extended to modern scholars.

From this perspective, we decided to present a scientific approach examining the nature of this knowledge dispute, and its scientific and methodological grounds, in order to answer the following issues: Is Metathesis an addressed topic in linguistic literature? What are its rules, grammars, and restrictions? Are variations in a word's structure cause changes in its original semantics? What is the relationship of this phenomenon to the daily use of the Arabic language? How does Metathesis affect language growth and word formulation?

Keywords : Spatial heart; morphological scales; accents; dialects; vocal strings .

مقدمة:

تعد ظاهرة القلب المكاني من قضايا الخلاف الصرفي التي نالت حظا واسعا من المناقشة والتحليل عند القدماء والمحدثين، وهي ظاهرة لغوية أقرها كثير من اللغويين باستثناء ابن درستويه.

ومن هذا المنطلق تروم هذه المقاربة بيان مفهوم القلب المكاني وتحديد أدلته وضوابطه وقيوده وتفسير العلماء له.

إشكالية البحث: هل ظاهرة القلب المكاني من الظواهر اللغوية المقررة في البحث اللغوي؟ وما ضوابطها وقيودها؟ وهل التغيرات الطارئة على بنية الكلمة من شأنها إحداث تغيرات في المعنى الأصلي للمفردات.؟

خطة البحث:

المبحث الأول: مفهوم القلب لغة واصطلاحا

المبحث الثاني: آراء علماء اللغة في ظاهرة القلب المكاني.

أ- آراء القدماء.

ب_ آراء المحدثين .

المبحث الثالث: القلب المكاني في الميزان الصرفي.

المبحث الرابع: تفسير ظاهرة القلب المكاني.

الدراسات السابقة:

1/ ظاهرة القلب المكاني (عللها وأدلتها وتفسيراتها)، عبد المفتاح الحموز، جامعة bbc.مؤتة 1986م.

2/ القلب المكاني (دراسة تاريخية في المفهوم والمصطلح) أحمد المحيد هريدي، مجلة علوم اللغة، القاهرة، المجلد3، العدد 3، 2000 م.

3/ القلب المكاني في الجملة القرآنية بين الاستعمال القرآني والتأويل اللغوي، طلال يحي إبراهيم الطوبجي، مجلة الرافدين، العدد 40، العراق 1426 هـ - 2005 م.

4/ مجلة الرافدين، ع.40، العراق 1426 هـ-2005 م، عبد الفتاح أحمد المجيد.

المبحث الأوّل: القلب المكانيّ: قراءة لُغوية واصطلاحيّة:

يتناول هذا المبحث قراءة لُغوية معجميّة؛ لاستكشاف حقيقة هذا المفهوم في الدّرس الصّرفيّ؛ واستكناه أبرز الإطلاقات اللّغويّة لمادّة (ق ل ب)؛ ولإنجاز هذه القراءة لا بدّ من مُعاينة بعض المعجمات التّراثيّة.

القلب لغةً :

ورد في معجم مقاييس اللّغة: "القاف واللام والباء: أصلان صحيحان، أحدهما: يدلّ على خالص شيء وشريفه، والآخر: على ردّ شيء من جهة إلى جهة"[1].

وجاء في أساس البلاغة: "قلب الشّيء قلبا: حوّله عن وجهه، وحجر مقلوب، وكلام مقلوب، وقلّب رداءه، وقلب البيطار قوائم الدّابة: رفعها ينظر إليها، وتقلب على فراشه، والحيّة تتقلّب على الرّمضاء، وأقلبت الخبزة: حان لها أن تقلب، ورجل أقلب مُنقلب الشّفة، وشفة قلباء بيّنة القلب وقلّبت شفته، ومن المجاز قلب المعلم الصبيان: صرفهم إلى بيوتهم، وقلّب التّاجر السّلعة وقلّبها: تبصّرها وفتّش عن أحوالها"[2].

وفي لسان العرب: "وقلّب الأمور: بحثها، ونظر في عواقبها. وفي التّنزيل العزيز: (وقلبوا لك الأمور). وتقلّب في الأمور وفي البلاد: تصرّف كيف شاء. وفي التّنزيل العزيز: (فلا يغررك تقلّبهم في البلاد) معناه: فلا يغررك سلامتهم في تصرّفهم فيها، فإنّ عاقبة أمرهم الهلاك. ورجل قلب: يتقلّب كيف شاء. وتقلّب ظهرا لبطن، وجنبا لجنب: تحوّل، وقولهم: هو حول قلب: أي محتال، بصير بتقليب الأمور، والقلب الحول: الّذي يقلّب الأمور، ويحتال لها" [3].

وبعد استعراض أبرز المفاهيم اللّغوية للمادّة المعجميّة (ق ل ب) نلاحظ أنّها لا تخرج عن المعاني الآتية:

-تحويل الشّيء عن وجهه الذي يريده.

-تغيير الشّيء.

-التبصّر والتّنقيب.

القلب المكانيّ: التّغيير والتّحويل، وفي العين: "القلب: تحويلك الشّيء عن وجهه، وكلام مقلوب وقلبته فانقلب وقلبته فتقلب، وقلبت فلانا عن وجهه: أي صرفته، والمنقلب مصيرك إلى الآخرة"[4]، وفي الحروف: تقديم بعضها على بعض.

واصطلاحا: من سُنن العرب، ويكون في الكلمة، ويكون في القِصّة: فأمّا الكلمة، كقولهم: جذَبَ وجبذَ، وبكلَ ولبكَ، وهو كثير، وقد صنّفه علماء اللّغة، وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جلّ ثناؤه شيءٌ، وأما الذي في غير الكلمات، كقولهم: كما عصِبَ العلْباءُ بالعودِ، وكما كان الرّناءُ فريضة الرّجْمِ...[5].

القلب: "هو جعل المعلول علة، والعلة معلولا، وفي الشريعة: عبارة عن عدم الحكم؛ لعدم الدّليل ويراد به ثبوت الحكم بدون العلة"[6]

والمكان: المعيّن: مكان له اسم سمّي به؛ بسبب أمر داخل في مسماه، كالدار فإن تسميته بها؛ بسبب الحائط والسقف وغيرهما، وكلها داخلة في مسماه[7].

و**المركب الإضافي لكلمتي (القلب المكاني)**: يدلّ على وقوع تحويل في مكان مخصوص؛ فالقلب المكاني اصطلاحا: يتكون من كلمتين: الأولى: كلمة (القلب) وتعني التحَّويل والتَّغيير والتَّبديل. والثانية: كلمة (المكاني) أي بتبادل مواقع الحروف.

القلب المكاني: هو "التَّغيير أو التحَّويل اللُّغوي، الذي يقع في كلمة من كلمات اللَّغة، في صورة تبادل أو تناوب في المكان أو الموضع أو الموقع بين أصوات (فونيمات) حروف كلمة من الكلمات بالتَّقديم والتَّأخير، فينشأ عن ذلك التَّغير في تتابع ترتيب الفونيمات (حروف الكلمة) كلمة أخرى فرعيّة جديدة متَّفقة في الدَّلالة والمعنى، ومُختلفة في ترتيب المبنى مع الكلمة الأولى الأصليّة"[8].

فالقلب المكانيّ: عمليّة تقنيّة ترتبط بتغيير مواقع حروف الكلمة، وتقليبها تقديما وتأخيراً للحصول على كلمة ثانية تولّد من رحم الكلمة الأصليّة، وتتّفق معها في المعنى؛ وتختلف معها في ترتيب البنية اللّفظيّة.

وقد استقرَّ مفهوم القلب المكاني واستخدامه عند أهل التَّصريف، بأنَّه: عمليّة يتمّ فيها تبادل صوتين لمواقعهما ضمن الكلمة الواحدة.

إذن؛ القلب المكانيّ: عمليّة تقوم على معناها بعد ذلك التبَّادل؛ إذ إنّ كلمة (مِعْلَقَة) حدث بها في لُغتنا المعاصرة قلب مكانيّ؛ فأصبحت (مِلعقة) مُحتفظة بالمعنى نفسه، ومن الواضح أنّ معلقة هي الأصل، فالفعل الذي اشتقت منه ليس (علق) بل (لعق)[9].

المبحث الثاني: آراء علماء اللُّغة في ظاهرة القلب المكانيّ:

المطلب الأول: آراء القدماء:

اختلف القدماء في ظاهرة القلب المكاني، فنجد مَنْ: أنكر وجودها؛ كابن درستويه، الذي تفرَّد بإنكار وجودها، وألَّف كتابا سمَّاه (إبطال القلب المكاني) [10]، وفي هذا السّياق يورد ابن درستويه في شرحه لفصيح ثعلب: "وأما قوله: شُدهت وأنا مشدوه؛ أي شُغلت فليس شدهت عندنا بمعنى شغلت كما ذكر، ولكنّه لتقارب لفظيهما لا لانقلاب أحدهما عن الآخر، كما جعله قوم من اللّغويين من باب المقلوب"[11] .

يفهم من كلام ابن درستويه أنّه ينكر القلب المكانيّ في كلمتيْ (شُدهت وشُغلت) ويراه من التّقارب اللّفظيّ والمعنويّ؛ ناسفا رأي ابن جنيّ وابن فارس والسّيوطي وغيرهم من اللّغويين الّذين أقرّوا هذه الظّاهرة، وأفردوها بمؤلّفات مُعتبرة.

والحقيقة أنّ التّفسير الذي يقدّمه ابن درستويه، يقفز على حقيقة المعنى؛ أليس المشدوه مشغولَ الفكر والوجدان؟.

ومن الغريب أن يسلك بعض المعاصرين هذا المسلك، في إنكار ظاهرة القلب المكانيّ واعتبارها من الفوضى اللّغويّة كما يقول أحمد كشك: " كان من الممكن أن نجعل الكلمات التي تخصّ هذا الموضوع دليلا من دلائل رفضه من نظامنا الصّرفي؛ فمن غير المعقول أن يقام بناء صرفيّ كامل من أجل حفنة من الكلمات النّادرة"[12].

والمتأمّل في كتب اللّغويين؛ كثعلب، وابن قتيبة، وابن جني، وابن فارس يلفي أنّهم أفردوا ظاهرة القلب المكانيّ بمصنّفات تراثيّة في مُنتهى التّحقيق والعرفان؛ بل إنّ الشّواهد الغزيرة التي ساقها ابن جنّي في كتابه الخصائص، والسّيوطي في المزهر تكفي مؤونة لدحض هذا الرّأي، ونسفه من أساسه؛ وتقوم دليلاً مقنعاً على مشروعيّة القلب المكانيّ.

ومنهم مَنْ جعلها سُنَّة مُطرَّدة وظاهرة شائعة في العربيَّة؛ كابن فارس (ت395هـ)، إذ يقول: "من سُنن العرب القلب. وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القصة: فأما الكلمة – فقولهم: "جذب وجبذ" و"بكل ولبك"، وهو كثير، وقد صنفه علماء اللغة، وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جل ثناؤه شيء"[13].

وجليّ من كلام ابن فارس أن ظاهرة القلب المكاني ظاهرة معلومة، وواقع ملموس عند اللّغويين العرب؛ ولعله يشير إلى فكرة التّقليبات التي اكتشفها الخليل بن أحمد الفراهيدي [170هـ] في كتاب العين؛ ومع إقراره بوجودها في الدّرس اللّغوي تنظيرًا وتطبيقًا؛ إلا أنّ كتاب الله تعالى خال منها.

والنّاظر في المصنّفات اللّغويّة التّراثيّة، يجد أمثلة كثيرة على ظاهرة القلب المكانيّ، فقد تنبَّه القُدماء لهذه الظّاهرة، وأقرَّ البصريّون والكوفيّون بوجودها في بعض الكلمات العربيَّة، إلا أنّهم اختلفوا في الصَّيغ التي وقعت فيها هذه الظّاهرة, فقد حصر البصريّون وجود القلب المكانيّ في (اسم الفاعل) من الفعل المعتل الأجوف، وجاء في المزهر: "القلب الصَّحيح عند البصريين مثلِ: (شاكي) السّلاح، و(شائك)، (وجُرُف هار) و(هائِر)، وأمّا ما يسميَّه الكوفيون (القلب)، نحو: جبذ وجذب، فليس هذا بقلب عند البصريين، وإنَّما هما لغتان"[14].

أمّا الكوفيون فقد توسَّعوا في مدلوله، وعدُّوا مثل هذا الذي أنكره البصريون قلبا مثل ما حصل في: (جذب) و (جبذ) وقد جمع بعض العُلماء ألفاظا عديدة من الكلمات التي حصل فيها قلب مكاني، وأودعوها مُؤلّفاتهم, فقد جمع ابن قتيبة (ت276هـ) منها قدرا في كتابه (أدب الكاتب)[15].

وخصَّص السّيوطي (ت911هـ) في المزهر حيّزا لهذا النَّوع من الألفاظ[16]، وذكر في المزهر أنَّ من النَّحويين مَنْ عدَّ ظاهرة القلب المكاني: "لُغات"، ومنهم مَنْ تَقَبَّل هذه الظَّاهرة بوصفها عمليَّة تبادل للحروف في الكلمة الواحدة، بحيث تُؤدّي الكلمة التي حصل فيها القلب المعنى نفسه لها قبل القلب.

ويُمثّل على ذلك السَّيوطي بجملة من الأمثلة التي ساقها من الجمهرة لابن دريد (ت321هـ)، يقول: "وزعم قومٌ من النَّحويين أنَّها لُغات، وهذا القول خلاف على أهل اللُّغة، يُقال: جبذ وجذب، وما أطْيَبَه وأيْطَبَه، ورَبَضَ ورضب، وأنبض ورَوضَبَ وأنضب، وصاعِقَة وصاقِعَة، ولَعَمْرِي ورَعَمْلِي، واضَمَحَلَّ وامْضَحَلَّ، وعَمِيق ومَعِيق .." [17].

إنّ القلب المكانيّ يعملُ على إغناء اللّغة العربيَّة، وإثرائها بألفاظ جديدة؛ إذ إنَّه يقوم على تبادل بين حرفين، ما يؤدّي إلى وجود صيغتين بالمعنى نفسه، ويقوم على التّبادل بين حرفين، ولكن لا بدّ أن تكون إحدى الكلمتين أصلا والأخرى فرعا عليها, ويجب أن يُقصر الفرع عن الأصل في التَّصريف[18]؛ وفي هذا الصدد ينقل لنا السَّيوطي قول السَّخاوي (ت643هـ) في شرح المفَصَّل، فيقول: "إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدرا، لئلا يلتبس بالأصل، بل يقتصر على مصدر الأصل، ليكون شاهداً للأصالة نحو: يئس يأسا، وآيس مقلوب منه ولا مصدر له، فإذا وُجِد المصدر، حكم النُّحاة بأنَّ كل واحد من الفعلين أصل، وليس بمقلوب من الآخر، نحو: جبذ وجذب، وأهل اللُّغة يقولون: إن ذلك كله مقلوب"[19].

فغياب المصدر شرط في حصول القلب المكانيّ؛ وهو شرط جوهريّ يعبّر عن أصالة الكلمة.

القلب المكانيّ في الجملة:

موقف القدماء من القلب المكانيّ في الجملة:

تحدّث ابن هشام(ت 761هـ) عن هذه المسألة في القاعدة العاشرة في "مغني اللبيب"؛ إذ يقول: "فنون كلامهم القلب وأكثر وقوعه في الشعر"[20]؛ ولقد أفرد لها ابن عصفور مكانًا في كتابه "فرائد الشعر" أسماه (إبدال الحكم من الحكم: معاملة المبتدأ...) "[21] .

القلب المكانيّ في الجملة في الشّعر العربيّ:

وعدّ النّحويون الشّواهد الشّعريّة المحمولة على هذه المسألة، من باب الضّرورة، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء [22]

وممّا يمكن عدّه من باب القلب في التّشبيه، قول رؤبة:

ومهمهٍ مغبرةٍ أرجـاؤه كأنّ لون أرضه سمـاؤه [23]

أيّ كأنّ لون سمائه لغبرتها لون أرضه، فقلب التّشبيه مبالغة وحذف المضاف [24] .

ويُؤَكّد ذلك قول ابن جنّيّ (ت392هـ): "اعلم أَنَّ كلَّ لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير؛ فأمكن أن يكونا جميعا أصلين، ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه, وذلك أنّهما جميعا يَتَصَرَّفان تصرُّفاً واحداً، نحو: جَذَبَ يَجْذِبُ جَذْباً؛ فهو (جاذب) والمفعول (مَجْذوب), وجبذ يجبذ جبذا؛ فهو (جابذ) والمفعول (مجبوذ)، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فَسَد ذلك؛ لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر. [...] فإن قَصُر أحدهما عن صاحبه ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفاً أصلاً لصاحبه"[25].

يحدّد ابن جنّيّ – رحمه الله – في هذا النّصّ الجوهريّ مفهوم القلب المكانيّ، وآليّاته التّطبيقيّة؛ فالقلب: هو تأخير وتقديم يتمّ بين لفظين، أحدهما: أصل للآخر؛ وفساد القلب، إنّما يكون بتصرّف اللّفظين تصرّفا واحداً؛ لأنّ الأصلين لا يحدث فيهما القلب المكانيّ؛ وعدم المساواة بين اللّفظين في الأصل الواحد: هو دليل على تفاوت في اللّفظين؛ ومن ثمّ فالأصل يكون في اللّفظ الواحد والثّاني تابع له، وإذا امتنع تصريف أحد اللّفظين حدث القلب المكانيّ، فاللّفظ الثّاني لا مصدر له [26] .

المطلب الثاني: آراء المُحدثين:

أخذ المحدثون ظاهرة القلب المكاني عن القدماء وأدرجوها في دراساتهم؛ فقد تناول (بروكلمان) ظاهرة القلب المكانيّ، ودرسها ضمن أنواع المخالفة؛ لأنَّ ظاهرة القلب المكانيّ تمَّت بصلة قرابة شديدة للمُخالفة؛ إذ إنّ القلب المكاني يحدث فيه تغيير أصله التَّخالف، وهو: التَّقدَيم والتَّأخير، أي أنَّ حرفًا من حروف الكلمة يُقَدَّم وآخر يُؤَخَّر مكانه، ويرى بروكلمان أنّ ذلك القلب حدث؛ لصُعوبة التَّتابع الأصلي لتلك الحروف على الذَّوق اللُّغوي، أي أنّ القلب المكانيّ يقوم على مبدأ الاقتصاد في الجهد؛ إذ تُقَدَّم بعض أصوات الكلمة عن بعض من باب السُّهولة في النُّطق تحت قانون الاقتصاد في الجُهد[27].

يندرج القلب المكانيّ في الدّراسات اللّغويّة المعاصرة – وفق رؤية بروكلمان– ضمن التّيسير في النّطق، وتجنّب مشقّة الأداء الصّوتيّ؛ ذلك أنّ تتابع الأصوات المتقاربة والمتماثلة مخرجًا قد يعسر على النّطق خاصّة عند الأطفال والعوام.

وقد أولى بعض المحدثين هذه الظّاهرة عناية فائقة، مثل: عبد الفتاح الحموز، الّذي ألّف كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع [28]، ونجد من المحدثين الطّيب البكوش الذي درس ظاهرة القلب المكاني؛ مُطلقا عليها تسمية جديدة بعنوان (التّبادل)[29]؛ إذ تتمَّثل هذه الظّاهرة في تبادل صوتين مكانهما في الكلمة، فيحدث بذلك تأخير الأوّل وتقديم الثّاني, ما يُؤدي إلى وجود صيغتين بالمعنى نفسه.

وذهب بعض المحدثين إلى أنّ ظاهرة القلب المكانيّ ترجع إلى الخطأ والتّوهم السّمعيّ، يقول برجشتراسر: "ونجد تغيّرًا آخر أصله قريب من أصل التّخالف، وهو: التقديم والتّأخير، أي أنّ حرفا من حروف الكلمة يُقَدَّم وآخر يُؤَخَّر مكانه، وعلّته أنَّ ترتيب الحركات في التّصورات أسهل من تغييرها الموجب للتّخالف، ونحن نشاهد ذلك بالآلة الكاتبة؛ فإذا لم نتيقّظ كتبنا كلّ الحروف اللاّزمة، لكن على ترتيب غير ترتيبها "[30]، أي يحصل عن طريق الخطأ في الطّباعة أو أنّه قد سمع كلمة؛ فتوهَّم أنَّ فيها حرفًا قد تقدم على حرف سابق له، فأخطأ فكتبها أو نطقها بقالب جديد – وذلك نظراً لتصورات قبلية كانت محفورة في ذهن ذلك الإنسان الذي أحدث القلب في تلك الكلمة، أو قد يكون لتقارب الحرفين في الصّفات أو المخرج؛ إذ يحدث تبادل موقعي الحرفين من باب الاقتصاد في الجُهد.

وقد علّل رمضان عبد التواب في كتابه التّطور اللّغوي ظاهرة القلب المكانيّ بنظريّة السُّهولة والتيَّسير، يقول: "والقلب المكاني – وهو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة لصُعوبة تتابعها الأصلي على الذُّوق اللُّغويّ– وهو ظاهرة يمكن تعليلها بنظريّة السُّهولة والتَّيسير"[31].

ولا يبعد رمضان عبد التّواب عن رأي بروكلمان في تعليل ظاهرة القلب المكانيّ، ومسوغات سلوك المتكلّم مسلك القلب؛ طلبا للسّهولة واليُسر، والخفّة في النّطق .

وأيّد عبد الفتّاح الحموز: فكرة القلب المكانيّ القائمة على نظريَّة السُّهولة واليُسر في النُّطق, إذ يقول: "ولعل ما يمكن حمله على توخّي السّهولة في نطق بعض الأصوات، ما نلحظه من قلب مكاني في بعض الألفاظ العربيَّة في لُغة الأطفال كقولهم: (قَعْل) في (عَقْل) و (اجعاز) في (إعجاز)، فقدَّموا القاف (الحرف اللَّهوي) على العين (الحرف الحلقي) في الكلمة الأولى؛ لأنّه أيسر في النّطق في صدر الكلمة العين، والقول نفسه في الكلمة الأخرى، فالجيم حرف شجري, والعين حرف حلقي فتتابع الهمزة العين مُستثقل عندهم، ولذلك فصلوا بينهما بالحرف الشّجري"[32].

ووافق هذا الرّأي "برجشتراسر" الّذي يرى مبدأ السُّهولة والتيَّسير: من أسباب القلب المكانيّ؛ فقد ذهب براجستراسر إلى أنّ (اتفعل): من "الافتعال تاؤه في العربيَّة دائماً تالية لفاء الفعل، وكانت في الأصل سابقة لها، كما هي في الآراميّة، نحو: ('etkri) أي اقترأ، يعني قُرِئ، لكنَّها كانت تُؤَخر بعد فاء الفعل إذا كانت هي واحدا من حروف الصّفير نحو ('estma): أي استمع، يعني سمع، وعلى هذا القياس أَخَّرت العرب التّاء في سائر الأفعال أيضا"[33].

المبحث الثالث: القلب المكاني في الميزان الصَّرفي:

قام القلب المكاني على تبادل موضعيّ بين حروف الكلم، وذلك بتقديم بعض الحروف على بعض، ما يستدعي التَّغيير في أحرف الميزان تبعاً لتغيّر الموزون, فإذا كان المقرّر أن الميزان الصَّرفي هو (الفعل)، فإنَّه عند تقديم اللام على العين يصير (فلع) أو (عفل)؛ بتقديم العين على الفاء، أو (علف) بتأخير الفاء على العين واللام، أو تقديم اللام على العين والفاء، فيصبح الوزن (لفع)، أو تأخير الفاء على العين واللام (لعف)، وهذه الصّورة الخامسة المحتملة أوردها الرَّضي (ت684هـ)[34].

المطلب الأول: أدلّة القلب المكانيّ عند ابن جنيّ:

يُعدُّ ابن جني –رحمه الله– من اللّغويين الذين أشبعوا مبحث القلب المكانيّ من مُنطلقات لُغويّة وصرفيّة؛ وقد عالج هذا المبحث مُعالجة علميّة دقيقة وعميقة؛ فيها من لُطف النّظر، وإجالة الفكر ما يستحق الإشادة المعرفيّة، والتّنويه المنهجيّ في مُقاربة، مثل: هذه الموضوعات الشّائكة.

وقد تنبّه القدماء لظاهرة القلب المكاني؛ كالخليل (ت174هـ)[35] وسيبويه (ت180هـ)[36]، إذ أفرد ابن جنّيّ لها بابًا بعنوان (باب الأصلين يتقاربان في التّركيب والتّقديم والتّأخير)[37].

واستنبط ابن جنّيّ (ت 392هـ) أدلّةً للحُكم بالقلب أو عدمه، ومعرفة الأصل من الفرع، ومن هذه الأدلّة:

أولًا: السَّعة في التَّصريف:

ذكر ابن جنّي أنّ القياس في كل لفظين فيهما تقديم وتأخير: أن يكون كلّ منهما أصلًا إن أمكن، يقول في الخصائص: "اعلم أنّ كلّ لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير؛ فأمكن أن يكونا أصلين ليس أحدهما مقلوبًا عن صاحبه، فهو القياس الذي لا يجوز غيره"[38].

أي إذا كان اللَّفظان متساويين في التَّصرّف، حُكم عليهما بعدم القلب، وعُدَّ كلَّ واحد منهما أصلاً، وبهذا الدَّليل حكم ابن جنّيّ بعدم القلب بين جبذ وجذب، يقول: "فممّا تركيباه أصلان لا قلب فيهما، قولهم: جذب وجبذ، ليس أحدهما مقلوبًا عن صاحبه، وذلك أنّهما جميعًا يتصرَّفان تصرفًا واحدًا، نحو: جذب يجذب جذبًا، فهو (جاذب) والمفعول (مجذوب)، وجبذ يجبذ جبذًا، فهو (جابذ) والمفعول (مجبوذ)"[39].

وعندما يكون أحد اللَّفظين أوسع تصرّفًا من الآخر، فإنّه – بقلب أحدهما عن الآخر – يكون الأكثر تصُّرفًا أصلاً لصاحبه، والآخر فرعًا، يقول ابن جنّيّ: "فإن قُصِر أحدهما عن الآخر تصرُّف صاحبه، ولم يساوه فيه، كان أوسعهما تصرّفاً أصلاً لصاحبه[...]، وذلك كقولهم: أنى الشيء يأنى وآن يئين، فآن مقلوب عن آنى، والدّليل على ذلك وجود مصدر: أنى يأنى وهو الإنى، ولا نجد الآن مصدرًا"[40]، وكذلك فإن (اضْمَحَلَّ)، هي الأصل، و(امْضَحَلَّ) هي المقلوب؛ لأنّ المصدر هي: (الاضْمِحلال) ولا نقول: (امْضِحلال)[41]، وكذلك قولهم: (اكْفَهَرَّ) و(اكْرَهَفَّ), الثّاني مقلوب من الأول؛ لأنّ التَّصرّف على (اكْفَهَرَّ) وقع ومصدره (الاكْفِهْرار) ولم يمر بنا (الكرهفاف) [42]، وكذلك نحو: "(شوائع) فإنّه أكثر تصرّفًا من (شواعي)؛ لأنَهَّ يُقال: شاع يشيع فهو شائع، ولا يقال: شعى يشعى؛ فهو شاع، فلذلك كان (شوائع) الأصل"[43].

فضابط القلب المكانيّ – حسب رأي ابن جنّي – هو المصدر؛ وإن غاب المصدر، فلا قلبَ؛ بمعنى أنّ الحكم على اللّفظين بالقلب المكاني منشؤه أن يكون اللّفظان: أصليين لهما مصدران، وإذا تعذّر المصدر في الثّاني، تمّ القلب المكانيّ؛ وأصبح اللّفظ الأول أصلاً للثّاني .

فالتّفاوت في التّصريف، والتّوسع فيه: هو القاعدة النّاظمة للقلب المكانيّ، والموجّهة له.

ثانيًا: عدم الإعلال مع موجبه:

عندما يكون أحد اللفَّظين فيه ما يوجب الإعلال ولم يعلّ: فإنَّه عندئذ يُعدّ مقلوبًا عن اللَّفظ الآخر، وتكون صِحَّته دليلاً على قلبه، ويقول ابن جنّي – بعدما أورد حجّة في قلب (أيس) من (يئس): "وأما الآخر فعندي لو لم يكن مقلوبًا لوجب إعلاله، وأن يقول: إست: أآس، كهبت: أهاب, فظهوره صحيحًا يدلّ على أنّه إنّما صحَّ؛ لأنّه مقلوب عمّا تصحّ عينه وهو (يئست)؛ لتكون الصِّحَّة دليلاً على ذلك المعنى؛ كما كانت صحَّة (عور) دليلاً على أنَّه في معنى ما لا بُدّ من صحّته وهو (أعور)"[44].

ثالثًا: الرُّجوع إلى المصدر:

الضّابط الثّالث: هو الاحتكام إلى المصدر؛ ذلك أنّ آلية الاستعانة بالمصدر في التّمييز بين اللّفظين، هو المؤشّر على وجوب القلب المكانيّ؛ ومن ثمّ نجعل الأول أصلاً والآخر فرعًا، يقول ابن جنّي: "ومن المقلوب قولهم: امْضَحَلَّ، وهو مقلوب عن اضْمَحَلَّ, ألا ترى أنَّ المصدر إنّما هو على اضْمَحَلَّ هو الاضْمِحْلال، ولا يقولون: امْضِحْلال"[45]، وكذلك كما مرّ سابقًا فإنّ (اكْرَهَفَّ) مقلوب عن (اكْفَهَرَّ)، وذلك بدليل المصدر (اكفِهْرار) ولا نقول: (اكرهفاف).

رابعًا: التَّجرُّد والزّيادة:

عندما يكون أحد اللفَّظين مجرّدًا من الزّيادة، والآخر مزيدًا، حكمنا على المزيد بأنَّه: مقلوب عن المجَّرد، ومن ذلك رأى سيبويه في (طَمْآنَ)؛ إذ يراها مقلوبة عن (طَأْمَنَ)[46]، وقد علّق عليه ابن جنّي، فقال: "وحُجَّة سيبويه فيه أنّ (طَمْأَن) غير ذي زيادة، واطمأنّ ذو زيادة، والزّيادة إذا لحقت الكلمة لحقها ضرب من الوهن بذلك، وذلك لأنّ مُخالطتها شيء ليس من أصلها مزاحمة لها وتسوية في التزامه بينها وبينه، وهو وإن لم تبلغ الزّيادة على الأصول فَحَش الحذف منها، فإنّه –على

كل حال– على صدد من التّوهين لها"[47]، ويفُسّر ابن عصفور (ت663هـ) ذلك، فيقول: "أن يكون أحد النَّظمين لا يوجد إلا مع حروف زوائد، تكون في الكلمة والآخر مُجَّرد من الزَّوائد، وذلك لأنّ دخول الكلمة الزّوائد تغيير لها، كما أنّ القلب تغيير والتَّغيير يأنس بالتّغيير"[48].

اللّفظ المجرّد: هو الأصل؛ ولهذا امتنع القلب المكانيّ؛ لتمام اللّفظ وبلوغه درجة الاكتفاء الذاتيّ؛ والمزيد لضعفه ووهنه احتاج إلى زيادة حروف؛ ليتمّ نقصه، والحروف الزّائدة دخيلة على الأصل؛ ومن ثمّ زاحمته وخالطته؛ فهي مقحمة عليه؛ وبهذا الاعتبار فإنّ الزّيادة أنسب للقلب؛ واللّافت للنّظر أنّ عبارة ابن عصفور الإشبيلي، أدق تصوير في التّعبير عن هذا الضّابط الذي فسّره من منطلق نفسي لطيف؛ بمعنى أنّ دخول أحرف الزّيادة على الكلمة تغيير لبنيتها؛ كما أنّ القلب تغيير للأصل؛ فانسجم تغيير الزيادة، وآنس لقربه من تغيير القلب المكانيّ.

خامسًا: منع الصَّرف لغير عِلّة:

يختص بكلمة (أشياء)؛ إذ وردت ممنوعة من الصّرف في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ ﴾[49]، لاحظ النُّحاة أنها مُنعت من الصَّرف – أي التّنوين – وجَعَلت الفتحة علامة على الجرّ عوضا عن الكسرة، وقد أُشكل ذلك عليهم؛ لأنّ الكلمة مُنعت من الصَّرف على غير قياس، فهي ليست مما تنطبق عليه شروط المنع من الصَّرف[50]، فلو كان ترتيب حروفها طبيعيّا لكان وزنها (أفعال) وهذا الوزن لا يمنع الكلمة من الصَّرف، ولهذا عُدّت مقلوبة؛ فقد جاء في المنصف: "قال أبو عثمان: وقال – يعني الخليل – (أشياء) فعلاء، وكان أصلها: (شيئاء) مثل: حمراء، فُقلبت، فجعل الهمزة التي هي لام أو لاً، فقال: (أشياء) كأنّها (لفعاء)"[51].

وقد أضاف ابن عصفور في (الممتع) دليلا آخر على القلب المكانيّ، وهو:

سادسًا: كثرة الاستعمال:

يعدّ ابن عصفور ندرة الاستعمال وكثرته: دليلاً على المقلوب والمقلوب منه، فكثير الاستعمال يعدّ أصلاً، أما قليله فمقلوب، وفي ذلك يقول ابن عصفور: "أن يكون أحد النَّظمين أكثر استعمالاً من الآخر، فيكون الأكثر استعمالاً هو الأصل، والآخر مقلوباً منه، نحو: (لعمري) و: (رعملي) فإن (لعمري) أكثر استعمالاً، فلذلك ادَّعينا أنَّه الأصل"[52].

إلا أنّ الباحثة، ترى أنّ المقلوب قد يكون أكثر استعمالاً وانتشارًا على الألسن من الأصل، ولا سيّما أنّ من أسباب القلب: تجنّب الثّقل إلى الخِفّة واقتصاد الجُهد، وهذا ما أشار إليه الرّضي في شرح الشّافية، يقول: "وكذا قلّة استعمال إحدى الكلمتين، وكثرة استعمال الأخرى المناسبة لها لفظًا ومعنى، لا تدلّ على كون القليلة الاستعمال مقلوبة"[53].

فضلا عن تلك الأدلّة على وجود قلب بعض الكلمات العربيَّة، فقد ذكر "براجستراسر" من الدَّارسين المحدثين دليلا آخر على وجود القلب، وهو:

سابعًا: المُقارنة باللُّغات السَّامية:

اعتمد بعض الباحثين المعاصرين على المقارنة باللُّغات السَّامية؛ للكشف عن القلب في عدد من الكلمات العربيَّة؛ إذ يقع القلب المكانيّ في الكلمة العربيَّة، في حين تُحافظ اللَّغات السَّامية الأخرى على أصل الكلمة، ومن ذلك كلمة (رُكبة) في العربيَّة فأصلها (بُرَكَة) بدليل أنّها في العبريّة (berek) وفي الآراميّة وفي الأكاديّة (burku) وفي الحبشيّة (berk)[54]، فأصل هذه الكلمة (بُركة) ثم قلبت بدليل بقاء الأصل في الفعل (بَرَكَ)، فهذه المقارنة تنبهنا إلى أمر مهمّ، وهو شيوع بعض الكلمات وانتشارها بحيث لا يعرف النَّاطقون إلا إياها، بينما يندثر الأصل ويُنسى، بمقارنة العربيَّة بالسَّاميات تستطيع تحديد الأصل والفرع بين الكلمات الّتي جرى فيها القلب المكانيّ, وفي ذلك يقول براجستراسر: "وأحياناً نحتاج إلى استعراض الكلمات المقابلة في المعنى، في سائر اللُّغات، مثال ذلك: (شمأل) وهو الأصل، (شأمل) مقلوب منه"[55].

وكذلك "كلمة (مع) فأصلها (عم)، إلّا أنَّ العربيَّة فقدت الأصل، وعُرف هذا بالمقارنة باللُّغات السَّامية"[56].

فالموازنة بين اللّغات السّاميّة ترشدنا إلى معرفة الكلمات الأصليّة من المقلوبة؛ بيان ذلك أنّ الأصل المشترك للّغات، والقرابة اللّغويّة والأُسريّة دليل على تداخل اللّغات.

المبحث الرابع: تفسير ظاهرة القلب المكانيّ:

اهتمّ علماء اللُّغة القدماء والمحدثون بظاهرة القلب المكانيّ، وحاولوا تفسيرها وتعليلها، فجاء في تفسير هذه الظّاهرة وتعليلها ما يأتي:

أولًا: اختلاف اللّهجات:

نسب البصريّون ظاهرة القلب المكانيّ إلى اختلاف اللَّهجات؛ إذ إنّهم يعدُّون اللَّفظين المتساويين تصرّفًا من باب اللَّغات، من مثل: جذب وجبذ وغيرها[57].

وذهب ابن دستوريه إلى أنّ ما يعدّه اللُّغويون قلبًا، ما هو إلا لُغات تداخلت، يقول: "في البطّيخ لغة أخرى طّبيخ بتقديم الطّاء، وليست عندنا على القلب كما يزعم اللُّغويون، وقد بيّنا الحُجَّة في ذلك في كتاب (إبطال القلب)"[58].

ولعلّ الذي جعل علماء البصرة يذهبون إلى عدم وجود قلب بين (جذب وجبذ)، وإنّما هما لُغتان[59]، هو أنّ هاتين الكلمتين – وأمثالهما من الكلمات المقلوبة – شاعت في الاستعمال وكثر ترادها، فلم يتمكّنوا من معرفة الأخرى، خاصّة وأنّها أخذت مجراها الطّبيعي في اللُّغة، وتصَّرفت واشُتقَّ منها صيغ كثيرة، فصارت كلا الكلمتين أصلاً من جذرين مُختلفين، ويغلب استخدام أحديهما على الأخرى حسب الشُّيوع والاستعمال، ولكل لهجة مُفرداتها الخاصَّة.

أيَّد بعضُ المحدثين ما ذهب إليه أصحاب هذا الرّأي؛ إذ يرى صبحي الصّالح: أنّ القلب المكانيّ يمكن أن يردّ إلى اختلاف اللّهجات، فيقول: "وفي هذا الجوّ الغامض من تأثُّر بعض الأصوات ببعض ـ وهو نتيجة حتمية لنطق قبيلة بدوية لم يتم صقل لغتها ـ لم تستنكف تميم عن تقديم الحُروف وتأخيرها في ألفاظ معَّينة – فهي تقول في القسم: (رَعَمْلي) عوضاً عن (لَعَمْري)، كما تقول: (جبذ) بدلا من (جذب)[60].

ويوافق هذا الرأي: الباحث عبد الفتّاح حموز، إلّا أنهُ يقرّ بالقلب المكانيّ في الألفاظ المقلوبة في القبيلة الواحدة من باب تطوُّر المفردات، فيقول: "ولسنا نُنكر أن يكون بعضها من باب اللَّغات، ولكنّنا لا نستطيع عدّ تلك الألفاظ المقلوبة في القبيلة الواحدة كذلك، ولعلّنا نستطيع أن نجاري مظان أصحاب اللَّغة وغيرها، في الإشارة إلى أنّ تلك اللَّفظة لُغة في الأخرى أو مُتَطوّرة، أو أنّ اللَّفظين لُغتان"[61].

وهو تفسير أقرب إلى روح اللّغة، باعتبارها كائنًا حيّا يتطوّر عبر الأزمنة، ويتأثّر بعوامل البيئة، والمحيط الاجتماعيّ.

ثانيًا: طلب الخفّة وكراهيّة اجتماع الأمثال:

إنّ اجتماع همزتين في آخر الكلمة مُستثقل في اللَّفظ، ولتجنُّبِ ذلك الثّقل، استخدمت العربيَّةُ القلب المكانيّ؛ للتَّخلّص من اجتماع الهمزتين, فالفعل (جاء) يُصاغ اسم الفاعل منه على النّحو الآتي:

جاء (جيأ) ← جايئ ← جائئ

نُلاحظ اجتماع الهمزتين في الصّيغة النّهائيَّة، نجم عنه ثقل في النُّطق؛ لذا استبعدت العرب هذه اللَّفظة واستبدلت بها (جائئ)، وقد فَسَّر سيبويه هذه الظَّاهرة على أساس القلب المكاني، فالكلمة (جايئ) لم تُقلب فيها الياء همزة، وإنّما جرى فيها قلب مكانيّ؛ فتقدمَّت الهمزة فصارت (الجائي)[62]، وبذلك نتخلَّص من اجتماع الهمزتين؛ طلباً للخفّة والتَّيسير، وصار هذا مبدأ البصريين في القلب المكانيّ، فقد حصروا القلب المكانيّ في دائرة (اسم الفاعل) من الفعل الأجوف؛ ومن ثم ضيّقوا مجال الاستشهاد؛ في حين وسعّ الكوفيون ذلك.

وما نلحظه من قلب مكاني في بعض الألفاظ العربيَّة في لُغة بعض الأطفال، قولهم: (قعل) في (عقل)، و(إجعاز) في (إعجاز)، إذ قدّموا: القاف، الحرف اللّهوي، على العين الحرف الحلقي في الكلمة الأولى؛ لأنَّه أيسر في النُّطق في صدر الكلمة من العين، والقول نفسه في الكلمة الأخرى، فالجيم حرف شجري، والعين، حرفي الحلق مُستثقل عندهم, ولذلك فَصَلُوا بينهما بالحرف

الشجري[63]. ونلاحظ وجود قلب مكانيّ عند الأطفال في بعض اللّهجات الحديثة في كلمة (شمس – سمش) و(ملآن – مليان) و(آجر– ياجور) وغيرها من الكلمات.

ولعلّ مصدر القلب: تقارب الحروف التي ينقلب بعضها عن بعض، وسهولة النّطق ببعض الحروف دون بعض، وما يسوغّ هذا القلب تماثل الحروف أو ثقلها.

ثالثا: أن تكون بعض الألفاظ المقلوبة من باب الخطأ والتّوهم:

وهي مسألة يخلو منها كتاب الله تعالى وقراءاته تمامًا؛ لأنّهما منزهَّان عن مثل هذا التّوهم والخطأ، وتكاد اللّغة الفصيحة تخلو منها أيضًا، ولعلّ مصدر هذا الخطأ أو التّوهم عند بعض العامّة والأطفال الّذين تتعثّر ألسنتهم في بعض الألفاظ، فيميلون إلى التّقديم والتّأخير في بعض حروفها [64]، وممّا يمكن حمله على ما مرّ، قول العامّة: "تجوز" في تزوّج، و"جواز" في زواج، و "مرسح" في مسرح و" أنارب" في أرانب[65]. ومن لحن العامة كذلك "خطب زجل" في "جزل" و "لطس الكتاب" أي محاه في "طلسه" (**66**) .

أشار "برجستراسر" من المحدثين إلى هذا القلب، قائلاً "ونجد تغييرًا آخر أصله قريب من أصل التَّخالف، وهو التَّقديم والتَّأخير، أي أنّ حرفًا من حروف الكلمة يُقَدَّم ويُؤَخَّر مكانه، وعلَّته أنّ ترتيب الحركات في التَّطورات، أسهل من تغييرها الموجب للتَّخالف، ونحن نشاهد ذلك بالآلة الكاتبة، فإنّنا إذا لم نتيقّظ، كتبنا كل الحروف اللازمة، لكن على ترتيب غير ترتيبها"[67].

رابعًا: نظرية السَّلاسل الصَّوتيَّة:

تُعد نظريَّة السَّلاسل الصَّوتيَّة من أحدث التَّفسيرات لظاهرة القلب المكاني، واعتمد (إبراهيم أنيس) فيها على الإحصائيّات اللُّغوية التي أُجريت بواسطة الحاسوب.

وتقوم هذه النّظريّة: على أنّ الإنسان يختزن في مخّه محصولاً لغوياً ضخماً، مرتَّباً وفق سلاسل صوتيَّة، وفي ذلك يقول إبراهيم أنيس: "إنّ المرء يكتسب في سني حياته محصولاً لُغوياً ضخماً يختزنه مُرتَّبا ترتيباً خاصا، يعين على تذكُّره وتداعي بعضه مع بعض، فكأنّ الله سبحانه قد أمدَّ المخَّ في كل منا بجهاز كمبيوتر عجيب، لا يكاد العلم الحديث يعرف عنه شيئًا.

ويكفل لنا الاستعداد الفطريّ اختزان المحصول اللّغويّ؛ مرتّبا في نظام صوتيّ خاصّ؛ ييسر علينا تذكر ما نحتاج منه في كلامنا، ولا شك أن ذلك المحصول اللّغوي لدى كلّ منا يتألّف من سلاسل صوتيَّة أغلبها ثلاثي الأصول أو الجذور، وأنّ هذه السَّلاسل تختلف في نسبة شيوعها في الكلام، فمنها الكثير الشُّيوع، ومنها: المتوسّط، ومنها النَّادر، وأنّ السّلاسل الصَّوتيَّة الأكثر شيوعاً من النَّاحية الإحصائيَّة: هي أكثر السلاسل حضورًا في الأذهان، وأسرع في الاستجابة حين الحاجة"(68).

وفي تفسير حدوث ظاهرة القلب المكاني بناء على هذه النَّظريّة، يقول إبراهيم أنيس: "فإذا سمع السَّامع أو نطق النَّاطق بسلسلة من تلك السَّلاسل الصَّوتيَّة القليلة الشَّيوع، تداعت لها مُسرعة سلسلة أخرى أشبه بها، أو أقرب إليها، وهي في نفس الوقت أكثر منها شيوعاً، وتتردّد في كلام النَّاس, فكأنما كانت تطفو على سطح الشُّعور، ولذلك تُبادر قبل غيرها في الاستجابة إلى المتكَّلم أو السَّامع، فحلول سلسلة صوتيَّة محل أخرى – وهذا هو القلب المكاني – سرُّه يُفسَر لنا ظاهرة القلب المكانيّ في مُعظم أمثلة العربيَّة بوجه عام"(69).

التّصحيح مع موجب الإعلال:

لقد عدَّ الصرفيّون القلب المكانيّ من إحدى وسائل التّصحيح؛ لأنّ اللّفظة المقلوبة محمولة في هذه المسألة على ما قلّبت منه؛ من حيث التّصحيح وعدمه، على الرّغم من موجب الإعلال في المقلوب، وممّا عدوه من هذا الباب قولهم: "أيسَ" في "يئسَ"، فلولا القلب لوجب الإعلال، ولقيل: إسْتُ أآسُ، كهيْتُ أهاتُ، فظهوره صحيحًا يدل على أنه إنّما صحَ، لأنّه مقلوب عمّا تصحَّ عينُه، وهو يئستُ لتكون دليلاً على ذلك المعنى، كما صحّت عين "عور"؛ دليلاً على أنّه في معنى ما لا بد من صحّته وهو "أعْوَرَّ" (70).

الخاتمة:

تناولت الدّراسة ظاهرة القلب المكانيّ: بين القدماء والمحدثين، مبيّنة آراء اللُّغويين في هذه الظَّاهرة، من حيث: أُسسها ومُسبباتها وأهمّيتها، وتوصّلت الدّراسة إلى أنّ القلب المكانيّ ظاهرة بارزة في لُغتنا العربيَّة الفصيحة والدَّارجة، وقد أشار السَّلف لها ومثّلوا عليها وجاؤوا بالأدّلة الّتي تثبت وجودها، وحاولوا تفسيرها، فأرجعوها إلى الخِفَّة وكراهية اجتماع الهمزتين في الطّرف، وإلى الضَّرورة كي يستقيم الوزن، وإلى اختلاف اللَّهجات.

وقد حظيت ظاهرة القلب المكاني باهتمام المحدثين من العرب والمسْتَشرقين، فأفردوا لها حيزاً في مُؤَلَّفاتهم, وحاولوا البحث عن أسبابها من أجل تفسيرها وتعليلها، فأرجعها بعضهم إلى نظريَّة السُّهولة وتجُّنب الصُّعوبة في النُّطق، وردّها فريق آخر إلى اختلاف اللَّهجات نظرا لاختلاف البيئات اللُّغويَّة، ومنهم من عزاها إلى الوهم والخطأ، وردها آخرون في الشَّعر إلى الضَّرورة الشعرية.

ولعلّ كلّ هذه الأسباب مُجتمعة أسهمت في نُشوء هذه الظَّاهرة، وكان آخر تفسيرات القلب المكانيّ نظريَّة السَّلاسل الصَّوتيَّة، التي اعتمدت على الإحصاءات اللُّغوية عن طريق الحاسوب، وقد اطمأنت الباحثة لهذه النَّظرية في تفسيرها لظاهرة القلب المكانيّ على اعتبارها ظاهرة لُغَّوية، لا تَحُدث عن وعي وتفكير مُسبق، وإنما هي وليدة بيئة لُغويَّة ذات سلاسل صوتيَّة خاصَّة بها، تَرَسَّخت في أدمغة أبناء تلك البيئة، فيكون حُضورها في أذهانهم أسرع من غيرها؛ لأنها تكون عندهم أكثر شيوعًا من غيرها، وهذا يجعل الإنسان يُحدث القلب المكاني في بعض الكلمات، نظرا للموروث الصَّوتي الذي اكتسبه واختزنه في دماغه ليعود له حين الحاجة.

والحاصل: أنّ ظاهرة القلب المكانيّ تبقى ظاهرة لغوية معقدة في أمس الحاجة إلى اجتهاد الباحثين واللغويين؛ ومن جملة النّتائج التي توصّلت إليها الباحثة في ظل مُقاربة علميّة لظاهرة القلب المكانيّ، ما يأتي:

1. ظاهرة القلب المكانيّ ظاهرة لغوية، ووسيلة من وسائل نمو اللّغة، وتكاثرها أقرّها كثير من العلماء قديمًا وحديثاً؛ وإن انفرد ابن درستويه [347هـ] بإنكارها.
2. اللّغة العربيّة واللّهجات هي الفضاء الأنسب لتطبيقات القلب المكانيّ.

3. القلب المكانيّ ظاهرة معقدة تحتاج إلى ملاطفة وملاينة، لا إلى إكراه، وتسلّط واغتصاب الكلمات، واستنطاقها.

4. عمليّة القلب المكانيّ تحكمها أدلّة، وضوابط، وقوانين، وقيود صارمة لامجال فيها للتّعسّف والتّعجرف، والتّمحل، والتّأويل اللّغويّ الممجوج.

5. نظريّة السلاسل الصوتيّة أقرب التّفسيرات الحديثة لظاهرة القلب المكاني؛ لأنّها تقرّ بدور الاستعداد الفطري؛ لاكتساب اللّغة من خلال المخزون اللفظيّ الذي يحتفظ به كلّ إنسان.

6. تعدّدت عوامل تفسير ظاهرة القلب المكاني بين القدماء والمحدثين؛ لتّعدّد اللّهجات وتداخل اللّغات السّامية، ومراعاة السّهولة واليُسر في الأداء اللغويّ.

7. كثير من الشواهد التي أجازها علماء العربيّة تحتاج إلى إعادة نظر وتدبر؛ كما أن بعض الكلمات التي استبعدت من ظاهرة القلب المكاني تتطلب جهدا آخر في تفسيرها، وتعليلها.

8. ظاهرة القلب المكاني من قضايا الخلاف الصرفيّ، والإشكاليات التي لا يمكن الجزم في عللها وأدلتها وتفسيراتها؛ نظرا لعدم وجود استقراء تامّ لكل الكلمات العربيّة المقلوبة، والشّواهد الشعرية؛ فضلا عن تطوّر الدّراسات الصّوتيّة، والصّرفيّة الحديثة.

الهوامش:

[1] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1420هـ – 1999م: 17/5 مادة (قلب).

[2] الزمخشري، أبو القاسم جار الله ، **أساس البلاغة**، دار الفكر، 1399هـ 1979م: ص518 مادة (قلب).

[3] ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط1،[د.ت]، 685/1 مادة (قلب).

[4] الخليل بن أحمد، الفراهيدي ، **العين**، تحقيق، مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال،[د.ت]، **171/5** مادة (قلب).

[5] ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، حققه وضبط نصوصه وقدّم له: عمر فاروق الطبّاع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ- 1993م، ص51.

[6] الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405**هـ** ص229 (قلب).

[7] **المصدر نفسه** ، ص293 (مكن).

[8] هريدي، أحمد المجيد، **القلب المكاني (دراسة تاريخية في المفهوم والمصطلح)**، مجلة علوم اللغة، القاهرة، المجلد 3، العدد 3، 2000م: ص11.

[9] ينظر: عبده، داود، **دراسات في علم أصوات العربية**، دار جرير، عمان، ط1، 2010م، ص91.

[10] السيوطي، جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، 371/1. والكتاب من مؤلفات ابن درستويه المخطوطة، ذكره فؤاد سزكين في **تاريخ التراث العربي**، بترجمة: عرفة مصطفى، ومراجعة: مازن عماوي، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، 1408هـ-1988م، 184/1.

[11] ابن درستويه، أبو محمد عبد الله ، **تصحيح الفصيح وشرحه**، تحقيق: محمد بدوي المختون، مراجعة رمضان عبد التواب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1425هـ- 2004م، ص 95.

[12] كشك، أحمد، **من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي**، ط1، القاهرة، 1983م، ص44.

[13] ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **الصاحبي في فقه اللغة العربية**، ص208. بيد أنّ الباحث عبد الفتاح الحموز يقرّ بوجود القلب المكاني في القرآن؛ مدعما رأيه بشواهد؛ إذ أفرد مبحثا بعنوان: "القلب المكانيّ في الجملة في القرآن الكريم" في كتابه: ظاهرة القلب المكاني في العربية عللها وأدلتها وتفسيراتها وأنواعها، ص179،173. بخلاف الباحث: طلال يحيى إبراهيم الطوبجي: الذي أنكر ورود أسلوب القلب في صياغة جمل القرآن الكريم. ينظر مقاله: **القلب في الجملة القرآنية بين الاستعمال القرآني والتأويل اللغوي**، مجلة الرافدين، العدد (40)، العراق، 1426هـ-2005م.

[14] ينظر: السيوطي، جلال الدين، **المُزهر في علوم اللُّغة**، 371/1.

[15] ينظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **أدب الكاتب**، تحقيق: محمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1431هـ-2010م .، ص492 وما بعدها.

[16] السيوطي، جلال الدين، **المُزهر في علوم اللُّغة**، 367/1-370.

[17] **المصدر نفسه**، 367/1.

[18] البكوش، الطيب، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، تقديم: صالح القرمادي، مؤسسة عبد الكريم، تونس، ط3، 1992م، ص73.

[19] السيوطي، جلال الدين، **المُزهر في علوم اللُّغة**، 367/1.

[20] ابن هشام، عبد الله بن يوسف ، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، صيدا – بيروت: المكتبة العصرية. [د.ت]: 695/2.

[21] ينظر: الحموز، عبد الفتاح: **ظاهرة القلب المكاني (عللها وأدلتها وتفسيراتها وأنواعها)**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار عمان، عمان بدعم من جامعة مؤتة، 1986م، ص163.

[22] الشاهد في: **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق وليد عرفات، بيروت، دار صادر، 2006م ، 17/1.

[23] البيت لرؤبة في (مجموع أشعار العرب)، اعتنى بتحقيقه وترتيبه: وليم بن الوردة ، الكويت، دار ابن قتيبة [د.ت]، ص3.

[24] ابن هشام، **مغني اللبيب**، 695/2.

[25] ابن جني، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1913م، 69/2-70.

[26] أفرد ابن جنى – رحمه الله- مبحثا جليل القدر، عظيم الفائدة؛ معنونا إياه بـ: "**باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصّنعة والتّلطّف لا بالإقدام والتّعجرف**"، ينظر: **الخصائص**، 88/2. ويفهم من هذا العنوان: أنّ عمليّة القلب المكانيّ: عمليّة معقّدة تحتاج إلى ملاينة وملاطفة، لا اغتصاب وتعسف وتكلّف.

[27] ينظر: بروكلمان: **فقه اللغات السامية**، ترجمة: رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، الرياض، 1977م، ص80 وبرجشتراسر: **التطور النحوي للغة العربية**، أخرجه: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997م، ص35.

[28] الحموز، **القلب المكاني في العربية عللها وأدلتها وتفسيراتها وأنواعها**، ص30

[29] ينظر: البكوش، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، تقديم: صالح القرمادي، مؤسسة عبد الكريم، تونس، ط3، 1992م، ص73.

[30] برجشتراسر، **التطور النحوي**، ص35.

[31] عبد التواب، رمضان **التطور اللغوي (مظاهره وعلله وقوانينه)**، مكتبة الخانجي- دار الرفاعي، القاهرة- الرياض، ط1، 1981م، ص57.

[32] الحموز، **ظاهرة القلب المكاني**، ص40.

[33] برجشتراسر، **التطور النحوي**، ص92.

[34] الأستراباذي، رضي الدين، **شرح الشافية**، 21/1-22.

[35] الخليل، كتاب **العين**، 48/1.

[36] سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون. عالم الكتب، بيروت، ط1، 1900م، 467/3.

[37] ابن جني، **الخصائص**، 69/2.

[38] المصدر نفسه ، 69/2.

[39] ابن جني، **الخصائص**، 69/2-70. وهو بهذا الرأي يخالف ابن فارس الذي يرى في كلمتيْ (جذب) و(جبذ) قلباً مكانياً.

[40] **المصدر نفسه**، 70/2.

[41] **المصدر نفسه**، 73/2.

[42] **المصدر نفسه** ، 73/1.

[43] ابن عصفور، **الممتع في التصريف**، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت: دار المعرفة، 1987م، 617/2.

[44] ابن جني، **الخصائص**، 72/1.

[45] ابن جني: **الخصائص**، 73/1.

[46] ينظر: سيبويه، **الكتاب**، 467/3.

[47] ابن جني: **الخصائص**، 74/2-75.

[48] ابن عصفور، **الممتع في التصريف**، 617/2.

[49] **سورة المائدة، الآية : ١٠١**

[50] للمزيد، ينظر: الشمسان، أبو أوس: **أقوال العلماء في صرف أشياء**، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب، الرياض، المجلد 13، 2001م، **ص3-26**

[51] ابن جني، **المنصف** (شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني النحوي البصري)، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، إدارة إحياء التراث القديم، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ط1، 1954م، 94/2.

[52] ابن عصفور: **الممتع في التصريف**: 617/2.

[53] الأستراباذي، رضي الدين، **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق: محمد نور الحسن محمد الزفزاف، محمد يحيى عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975م، 24/1.

[54] ينظر: برجشتراسر، **التطور النحوي**، ص36، و رمضان عبد التواب، **التطور اللغوي**، ص58.

[55] برجشتراسر، **التطور النحوي**، ص36. للمزيد من التفصيل في هذا الموضوع، ينظر: عبد التواب رمضان، **في قواعد الساميات العبرية والسريانية والحبشية**، ط2، مكتبة الخانجي، 1983م، ص 247.

[56] عبد التواب، **التطور اللغوي**، ص58.

[57] ينظر: السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، 481/1.

[58] السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، 481/1.

[59] **المصدر نفسه**، 481/1.

[60] الصالح، صبحي، **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1976م، ص103.

[61] ينظر: الحموز: **ظاهرة القلب المكاني**: ص73.

[62] ينظر: سيبويه، **الكتاب**، 377/4، الأستراباذي، رضي الدين، **شرح شافية ابن الحاجب**، 25/1.

[63] الحموز، **ظاهرة القلب المكاني**، ص43.

[64] **المرجع نفسه**، ص74.

[65] **المرجع نفسه**، ص74.

[66] **المرجع نفسه**، ص 74.

[67] برجشتراسر، **التطور النحوي**، ص35.

[68] ينظر: أنيس، إبراهيم ، **مسطرة اللغوي**، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، الجزء 29، 1972م، ص10-11. وقد ردّ هذا الرأي عبد الفتاح الحموز في كتابه: **ظاهرة القلب المكاني في العربية**، عللها وأدلتها وتفسيراتها وأنواعها. ينظر: ص182.

[69] أنيس، إبراهيم ، **مسطرة اللغوي**، ص11.

[70] الحموز، **القلب المكاني**، ص9.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة القرآن بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الإصدار الثاني.

01- ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب: بيروت، ط2، 1913م

02- ابن جني، أبو الفتح عثمان: **المنصف** (شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني النحوي البصري)، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، إدارة إحياء التراث القديم، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ط1، 1954م.

03- ابن درستويه، أبو عبد الله بن جعفر: **تصحيح الفصيح وشرحه**، تحقيق: محمد بدوي المختون، مراجعة: رمضان عبد التواب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1425هـ- 2004م.

04- ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، حققه وضبط نصوصه وقدّم له: عمر فاروق الطبّاع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ- 1993م.

05- ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1420هـ - 1999م.

06- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: **أدب الكاتب**، تحقيق: محمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1431هـ-2010م كشك، أحمد: **من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي**، ط1، القاهرة، 1983م.

07- ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط1،[د.ت].

08- ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا – بيروت-، المكتبة العصرية، [د.ت].

09- الأستراباذي، رضي الدين: **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق: محمد نور الحسن محمد الزفزاف، محمد يحيى عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975 م.

10- الإشبيلي، ابن عصفور: **الممتع في التصريف**، تحقيق: فخر الدين قباوة، بيروت، دار المعرفة، 1987م.

برجشتراسر: **التطور النحوي للغة العربية**، أخرجه: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997م.

11- بروكلمان، كارل: **فقه اللغات السامية**، ترجمة: رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، الرياض، 1977م.

12- البكوش، الطيب: **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، تقديم: صالح القرمادي، مؤسسة عبد الكريم، تونس، ط3، 1992م.

13- الجرجاني: علي بن محمد: **التعريفات**، تح.: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ

حسان بن ثابت: **الديوان**، تحقيق: وليد عرفات، بيروت، دار صادر، 2006م.

14- الحموز، عبد الفتاح: **ظاهرة القلب المكاني (عللها وأدلتها وتفسيراتها وأنواعها)**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار عمان، عمان بدعم من جامعة مؤتة، 1986م.

15- الخليل بن أحمد: **العين**، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال،[د.ت] .

16- رؤبة بن العجاج: **مجموع أشعار العرب**، اعتنى بتحقيقه وترتيبه: وليم بن الوردة ، الكويت، دار ابن قتيبة [د.ت].

17- الزمخشري، أبو القاسم جار الله : أساس البلاغة، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

18- سيبويه، أبو بِشر عمرو بن عثمان: **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون. عالم الكتب، بيروت، ط1، 1900 م.

19- السيوطي، جلال الدين: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م.

20- الصالح، صبحي: **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1976م.

21- عبد التواب، رمضان: **التطور اللغوي (مظاهره وعلله وقوانينه)**، مكتبة الخانجي، دار الرفاعي، القاهرة- الرياض، ط1، 1981م.

22- عبد التواب، رمضان: **في قواعد الساميات العبرية والسريانية والحبشية**، ط2، مكتبة الخانجي، 1983م.

23- عبده، داود: **دراسات في علم أصوات العربية**، دار جرير، عمان، ط1، 2010م.

24- فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي**، ترجمة: عرفة مصطفى، مراجعة: مازن عماوي، منشورات: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1408هـ-1988م.

ثانيا: الأبحاث المنشورة:

25- أنيس، إبراهيم: **مسطرة اللغوي**، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، الجزء 29، 1972م.

26- الشمسان، أبو أوس: **أقوال العلماء في صرف أشياء**، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب، الرياض، المجلد 13، 2001م.

27- الطوبجي، طلال يحيي إبراهيم: **القلب في الجملة القرآنية بين الاستعمال القرآني والتأويل اللغوي**، مجلة الرافدين، العدد (40)، العراق، 1426هـ-2005م.

28- هريدي، أحمد المجيد: **القلب المكاني (دراسة تاريخية في المفهوم والمصطلح)**، مجلة علوم اللغة، القاهرة، المجلد 3، العدد 3، 2000م.